فيروز

شعيب زواوي ـ الجزائر

أكثر ما شدني في القصة أنها تشبهني، ملامحي، نبضاتي، حركاتي، سكناتي، وحتى استهتاري، وكانت تشبهها، سحرها، عطرها، جمالها، لطفها، من اللحظات الأولى أحسست أنها مذكراتي سرقت مني، ولكنّي لم أكتب مذكراتي بعد لأعيد قراءتها، فأكتشف أنها قصتي، لكن لا أدري كيف وصلت إلى هذه الجريدة ومن صاحب التوقيع أسفلها، هل يكون فقط تشابه أحداث أم أنّ للحب وجه واحد؟ !

أتذّكر أول يوم التقينا فيه، كنا نفر قليل من الرجال وكنّ كثيرات، وكانت المناسبة حفل أقامته إحدى التنظيمات الطلابية بحي البنات، كانت تملك ما يمثل نقطة ضعفي وقوة كل البنات أمامي... "عيناها"، لا أستطيع أن أعبّر عن لهفتي للعيون الجميلة، أبديت إعجابي دون تردد وحاولت إقصاء كل من معي، فنحن أربعة رجال، واحدنا كان مرتبطا أصلا، وثاني خجول جدا، وثالث جعلته يشعر أنّ صاحبتها هي الأصلح له، كل هذا حدث في دقائق عن يميني، وعن يساري كان القلب ينبض كلمات، وزادت النبضات حين أيقنت أنّي مجنون يطلب ودها.

الفرق بين قصتي الحقيقية وقصتي التي أقرؤها أول مرة أنّ حبي جاء بعد يقين الجنون وجاء حب علّال (*) بعد مزحة خفيفة، لكن الاحساس كان واحدا، الاحساس بذلك الخيط الرفيع الذي ربطه بإنعام وربطني بفيروز ووحد قلبين.

نعم يا علّال فالحب يغرقنا في التيهان والأسئلة ولا نستطيع الهروب من قدره، ترى لماذا؟ أعلم أنك لا تستطيع الإجابة مثلي، كما لا أستطيع أن أجيبك عن السر الذي يخبئه الحب في نفسه حتى يجعل كل الفوارق تذوب لحظة انفجار قلبيّن.

كانت متحفظة ولم تقنعها الكلمات، فهي لا تؤمن بهذه العلاقة الظرفية، بل تؤمن بثنائية الحب والزواج، كانت عنيدة بكبرياء المرأة العربية، معتزة بشرف امرأة ترى الدنيا أتفه من كلمة سوء تقال في جماعة تشير إليها.

وفي لحظة وحي تدرك أنها ملكت قلبي، فتحمل قلبها على صحن تهديه إليّ.

أتذكر جيدا، كان يوم امتحان، وجدتها تنتظرني لتعلن حبها، مستشهدة بوقوفها الطويل تحت أشعة الشمس، في تلك اللحظة حاولت أن أبحث عن نفسي وسط كل عشاق التاريخ، فلم أجدها إلا في إحدى لقطات فيلم "التيتانيك" وهي تعود إليه لتخبره أنها اقتنعت برأيه.

الفرق بيني وبين بطل "التيتانيك" أني لست وسيما مثله، وهي لم تكن أرستقراطية مفلسة، بل فقيرة مثلي، يتيمة كقلبي، وأجمل من كل ركاب "التيتانيك"، جميلة كعينيها، طاهرة كخمارها، محافظة كملمس شفتيها.

كانت مرآتي أرتني كل عيوبي، وأهم عيب يسكنني، غزلي المجاني لكل فتاة عرفتها، لأنّي كنت أظن أنّ الكلمات الجميلة من حق كل فتاة، فكان غزلي مكفولا للجميع وبالمجان، حتى اتهمني صديقي بأنّي الرجل الأكثر غزلا في التاريخ، كانت

تعجبني هذه التهمة وتثير غروري قبل أن أعرف فيروز، لكن فيما بعد أدركت تفاهمة هوايتي عندما أخبرتني أنّها لا تريد أن يتسع ملكي لأكثر منها وحدها.

كنت سعيدا جدا بحبها، أقول لها أحبك في اليوم عشرات المرات، ولا أسمعها مرة واحدة منها، فهي ترى أنّ الكلام ليس ضروريا في الحب، حتى في المرة الوحيدة التي أسمعتني إياها كانت بعد إلحاح شديد مني

...أحبك

لا أعلم إن كان كل الناس يسمعونها بنفس النغمة وكأنها تخرج من صدفة ممزوجة بصوت البحر وحركة السحاب وعطر الورد، كنت أسمعها دائما من غير كلام، اسمعها في نظرات عينيها، في نرفزتها، في التقاء أيدينا، في دمعها الذي سال ليمحو خطيئاتي.

كنت كلما اقترب منها أزداد خوفا من أن لا أكون في مستوى أحلامها التي بنتها معي، كانت تدرك أنّ المكان الحقيقي للمرأة هوبيت زوجها، لهذا لم تكن تحلم بمنصب عمل مرموق، أو حتى فيلا في منطقة راقية، كانت فقط تحلم بمطبخ تضع ديكوره بنفسها وتختار بهاراته، وكان "الفلفل لكحل" أساس كل طعام بيننا، تذّكرني بحلمها هذا ونحن نتناول شطائر البيتزا، وكانها تريد أن تقول لي، سأجعلك تستغني عن الأكل خارج الدار لأني سأسيطر على معدتك، وكنت مستعدا أن أسلمها حياتي كلها.

أتذّكر هذا وأنا أقرأ قصتي لأول مرة، وكأن التاريخ يكتب بلغة واحدة، يرتب الله أحداثه، ونقوم كلنا بتنفيذ نفس الدور دون الخروج عن سيناريو القدر.

كنا هكذا ثلاثتنا، أنا وعلّال وبطل "التيتانيك"، فهذا الأخير أغرقه جبل الجليد وبقيت حبيبته تتذكره لسنوات، وعلّال أدركته رائحة البياض تنشرها إنعام بثوبها الأبيض، أما أنا فلا أزال أصارع الأمواج بمجداف واحد وزورق صغير، وفيروز من هناك تنظر إليّ خائفة أن لا أصل إليها، أو أصل وقد اختفت عن الأنظار على صهوة جواد لا يترك بيني وبينها إلا سحب الغبار وعلى كاهلي تعب البحر وثقل الرمال.